

أحمد بن ماجه

أسد البحار

مشاہیر العرب

⑧

أحمد بن ماجه

أسد البحار

بقلم: فوزی فخر



— نمبر ۱ —

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

إشارة :

أحمد بن ماجد الملاح ، اسم مضيء فى الحضارة العربية ، حين كتب الآخرون تواريخهم فى صفحات الكتب ، كتب تاريخه على صفحات البحار ، كانت الأمواج سطوراً ، ومقدمة سفينة قلماً خط به أروع الصفحات ، عشق البحر عشقاً تملك عليه كل مشاعره ، فتفنن فى علاقته به ، حتى أنه كان يكتب عن البحر فى الفترات التى قضاه فى البر ، فألف أكثر من ثلاثين كتاباً ، بعضها ألفه شعراً وبعضها ألفه نثراً ، فكان أول عالم فى تاريخ البشرية يتدع علوم البحار ، واستخدم كل إمكاناته حتى يهتدى فى إبحاره ، فرسم الخرائط الملاحية ، واخترع الآلات الفلكية والبحرية ، وهده تفكيره النقى إلى اختراع البوصلة البحرية ، التى مازال البحارة يستخدمونها إلى يومنا هذا ، منذ أن اخترعها منذ أكثر من خمسمائة عام .

ولأحمد بن ماجد ألقاب كثيرة ، فهو الملاح ، وأسد البحار ، وليث اللبث ، وشهاب الدنيا والدين ، وحاج الحرمين الشريفين ، وناظم القيلتين ، والمعلم العربى ، ورئيس علم البحر وفاضله ، وأستاذ هذا الفن وكامله ، ورابع ثلاثة من المعاملة المشهورين فى البحر وهم محمد بن شاذان ، وسهل بن أبان ، وليث بن كهلان .

وقد ظهر ربانة مشهورون على امتداد التاريخ العربى قبل أحمد بن ماجد أولهم محمد بن شعبان الأزدى اليمنى ، ثم محمد بن أحيحة بن

الحاج الأوسى ، ثم محمد بن مسلمة الأنصارى ، الذى عاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خواشير بن يوسف بن صلاح الأركى فى القرن الرابع الهجرى ، ثم أحمد بن محمد المغبرى .

لكن كل هؤلاء الربانة كانوا خبراء فى الملاحة الساحلية ، أما الخبراء فى الملاحة فى البحر الطليق فكانوا المعاملة الثلاثة المشهورين ابن شاذان ، وابن أبان ، وابن كهلان ، ولكن خبرتهم كانت محدودة أيضاً ، لأنهم لم يبحروا إلا من سيراف على الخليج الفارسى إلى بر مكران على ساحل السند ، فى حين أبحر بن ماجد فى المسافة من إفريقيا إلى الهند ، فكتب على صفحات البحار والمحيطات تاريخاً ملاحياً مشرقاً ، جعل راية الملاحة العربية أعلى من كل الرايات وسجل اسم أحمد بن ماجد بحروف من نور فى تاريخ علوم البحار ، وفى تاريخ الملاحة العالمية .

وقد ظلت لأحمد بن ماجد مكانته فى الملاحة العربية ، ندرحة . البحارة فى ميناء عدن ظلوا حتى القرن العشرين يقرءون له النسخة كلما صعدوا إلى ظهر سفنهم ليبحروا بها ، وليست مكانته مقصورة على العرب وحدهم ، بل تعدت ذلك فنال شهرة عالمية ، حين قاد سفينة الملاح البرتغالى الشهير فاسكو دا جاما من شاطئ كينيا إلى السواحل الهندية ، وسجل التاريخ لأحمد بن ماجد أنه كان الرائد الوحيد الذى يمكنه الإبحار بسفينة إلى سواحل الهند فى ذلك الوقت ، فى حين كانت تنحصر جميع السفن الأخرى فلا تكمل رحلتها .

إن أحمد بن ماجد وسام متألئ على صدر البحرية العربية ، حقق للملاحة العالمية ما لم يحققه غيره حتى زمانه ، وهو الرائد الأول لعلوم البحار ، بهديه امتدى الملاحون في ظلمات البحار قرونًا بعد قرون .

طفولته :

هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي ، وقد ولد في النصف الأول من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي (حوالى ٨٣٨ هـ - ١٤٣٤ م) في جلفار على ساحل عُمان ، وكان جده رباناً ، كما كان والده رباناً أيضاً ، وكانت توجد صخرة بارزة على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر تسمى « ظَهْرَ ماجد » كان والده يربط سفينته عندها ، كما كان يسمى ربانَ البرّين أى ساحلى البحر الأحمر ، وقد سجل تجاربه الملاحية في كتاب ضخّم بعنوان « الأرجوزة الحجازية » فى ألف بيت من الشعر ، ومن هذا الأب الربان الشهير جاء أحمد بن ماجد ، فنشأ فى بيت على شاطئ عُمان ، تتردد فيه المفردات الملاحية وحكايات البحر ، وترتبط حياة جميع الأقارب والجيران بالبحر ، منهم الملاحون ومنهم الصيادون ، حتى من لا يقوى منهم على ركوب البحر كان يعمل فيما يجود به البحر ، إمّا ما يستخرجه الصيادون من خيراته ، أو ما تحمله السفن من أنواع التجارة المختلفة من شتى البلاد .

وتقترب الصورة - حيث ذلك الشاطئ المتسع بأمواجه الرقيقة ، وأحمد بن ماجد مازال طفلاً في الخامسة من عمره ، يعدو على الرمال مع أصحابه ، ويلتقط الحمار ، ويستمتع باللعب في المياه التي تقبل الشاطئ في حنان ، ويرتبط الطفل بالبحر ، لم يعد يهتم بتلك الدجاجات التي تربىها والدته في الدار ، لقد صار حبه الكبير للمياه الزرقاء الدائمة الحركة ، وصار لعبه مع تلك الموجات التي تشاكسه دائماً هو وأصحابه ، صار يذهب مبكراً ليرى الشمس وهي تصعد من الأفق ، ناشرة أنوارها على صفحة المياه ، ويتابع السفن وهي تتوغل في البحر ، ويتابع القوارب وهي تسبح على الأمواج ، حين صار عمره تسع سنوات تطلع إلى الإبحار ، فقد صار بعض أصحابه يركبون القوارب ويسحرون مع آبائهم ، وهو لا يقدر على ذلك ، فوالده يخرج في رحلات طويلة بسفينة الكبيرة ، فيذهب إلى البحر الأحمر وهو لا يقدر على ذلك ، هكذا يقول له والده وتقول له والدته ، لكنه يفي الإبحار ، لذلك قرر أن يعرض الأمر على والده حين يعود من رحلته ، تحدث إلى أبيه حين عاد ، وأخبره أنه يشعر أن أصحابه أحسن منه حظاً ، حين ذاك قال له والده : إن عليه أن يجيد السباحة أولاً ، وبعد ذلك يمكنه الإبحار .

رجع أبوه من الرحلة التالية فوجد أحمد قد أجاد السباحة تماماً ، فصنع له قارباً بمحركاتين صغيرين ، بقوى على استعمالهما ، وبدأ

أحمد بن ماجد يتنزه بقاربه الصغير بالقرب من الشاطئ ، متفائلاً ،
وصار أكثر ارتباطاً بالبحر .

الإبحار :

وكبر الطفل ، صار عمره عشر سنوات ، فقرر والده أن يصحبه
معه في رحلته التالية ، عارضت والدته ، فقد خشيت على ابنها من
ركوب البحر وهو مازال في هذه السن ، تركه والده تلك المرة ،
لكنه اصطحبه في المرة التي بعدها ، كانت المرة الأولى التي يركب
فيها أحمد بن ماجد سفينة كبيرة ، أذهله كل ما يراه ، اتساع البحر ،
عنف الرياح ، طاعة البحارة لوالده الريان ، العمل الجاد والمجهد طوال
الرحلة ، تفاهم الملاحين وإدراك كل منهم لما يجب عليه عمله ، وأداء
المطلوب بكل دقة ومهارة ، ذلك ما كان يحدث بالنهار ، أما الليل
فكان مخيفاً ، حيث يطبق الظلام ، وتعلو أصوات الرياح والأمواج ،
ويتناقل البحارة الحكايات المرعبة عن مخلوقات البحر المخيفة ، حين
ذاك كان أحمد بن ماجد يجلس ناظراً إلى السماء ، ويشعر أن نجوم
الليل تخف عن ما يشعر به من خوف ، ولكن حين ييزغ الفجر
ويبدأ مد التور كان كل شيء يختلف ، فتبدد الأوهام والمخاوف ،
في تلك الرحلة عرف ابن ماجد الفرق بين ليل البحر ونهاره ، وعلم
الفرق الشاسع بينهما ، وعلم أيضاً الفرق بين ساعات اليوم في البحر
وساعاته في البر .

لم تكن تلك الرحلة إلا بداية ، فقد توالى خروج الفتى مع أبيه فى رحلات كثيرة متتالية ، وقد كان والده حصيفاً ، تركه طوال الرحلة الأولى متفجعاً فى الذهاب والعودة ، وفى الرحلة الثانية كلفه بأعمال بسيطة ، وأخذ يكلفه تدريجياً بالأعمال الصعبة ، ثم الأكثر صعوبة ، حتى جعله معاوناً للملاح المسئول عن دفة السفينة ، وهو عمل خطير وحساس ، ولم يكلفه والده بذلك إلا بعد أن جعله يؤدى كل الأعمال التى يقوم بها الملاحون ، ومكث معاوناً على الدفة فى ثلاث رحلات ، ثم جعله مسئولاً عنها فى الرحلة الرابعة ، وأمر الملاح الآخر أن يكتفى بمراقبته والإشراف عليه ، وعادت السفينة سالمة آمنة إلى ساحل عُمان ، فأحس بالزهو والفخر لكن والده صدمه حين أنبه على زهوه ، وحذره منه ، فالزهو قد يجعله لا يقدّر أخطار البحر حق قدرها ، وكان درساً هاماً أفاد أحمد بن ماجد طوال عمره .

صار عمر أحمد بن ماجد سبعة عشر عاماً ، وكان والده يعد له مناجاة رائعة ، فحين صعدوا إلى سطح السفينة أمره بقيادتها ، فهو الريان هذه المرة ، وسيكون دور أبيه هو الإشراف كى يتدخل إذا احتاج الأمر ، أحس أحمد بن ماجد بمدى المسؤولية الضخمة التى ألقاها والده على عاتقه ، فدعا الله - سبحانه وتعالى - أن يعينه ويوفقه ، وتوكل على الله ، فأبحر بالسفينة من شاطئ عُمان إلى بحر العرب ، ثم إلى البحر الأحمر ، وهناك جاء دور والده فأشرف على تفريغ حمولة

السفينة من البضائع ، وباعها ، ثم اشترى بأثمانها بضائع أخرى ، حملها في السفينة ، ثم أمر ولده بالإبحار عائداً إلى عُمان ، في تلك المرة تدخل والده مرات قليلة ، لكنه في المرة التالية لم يتدخل ، إذ كان أحمد بن ماجد قد وعى الدرس جيداً ، وصار رباناً يعتمد عليه ، أما الرحلة التي تليها فقد ترك له مهمة نقل بضائع التجار من عُمان إلى شاطئ البحر الأحمر ، وبيعها ، وشراء ما كلفه التجار بشرائه لهم ، وكان يتدخل أيضاً في مسألة البيع والشراء ، ثم ترك الأمر كله لأحمد بعد ذلك ، فقد صارت لديه خبرة في كل هذه الأمور ، ولم يعد ينقصه شيء لكي يتم انتظام حياته إلا أن يتزوج .

تزوج أحمد بن ماجد ، وأكرمه الله - عز وجل - بأول أبنائه ، وصار واحداً من ربانة البحار المعروفين بالتدين العميق والمهارة الملاحية والدقة في إصلاح ما يصيب السفن من أعطاب ، وتزود - بالإضافة إلى كل ذلك - بكثير من العلوم ، وتعمق في دراستها حتى تمكن منها ، مثل علم الفلك والرياضيات والجغرافيا وعلوم الدين والأدب ، وقد تبدى تمكنه من تلك العلوم في مخترعاته ومؤلفاته ، ثم توفي والده فقام برحلاته إلى البحر الأحمر ، لكن عينه كانت تلتفت دائماً إلى البحر الكبير في الغرب ، حيث بلاد الهند التي يسمع كثيراً عما تحويه من عجائب ، وما فيها من بضائع وتوابل .

سواحل الهند :

ذات يوم زاره عبدالله العُماني ، وهو واحد من أكبر التجار في بلاد عُمان ، وسأله إن كان قد سمع عن ملاح يمكنه الإبحار إلى بلاد الهند ، ليأتيه بضائع من هناك ، فأخبره أحمد بن ماجد أنه يفكر في القيام بهذه المغامرة ، ولكن بعد تذليل بعض العقبات ، وأهمها عدم وجود سفينة كبيرة تتحمل رحلة طويلة كهذه الرحلة ، وبدأ في التفكير الجدى في بناء سفينة كبيرة جديدة ، كان معه مال يكفى تكاليف بناء تلك السفينة ، لكى بناءها سوف يستغرق وقتاً طويلاً ، وسوف يعطل رحلاته ، فهو يجب أن يكون موجوداً أثناء ذلك حتى يتابع بنفسه هذا الأمر .

صار أحمد بن ماجد ينام فيحلم بشواطئ الهند ، ويستيقظ فيملاً هذا الأمر تفكيره ، وأخيراً قرر بناء السفينة ، حقاً هو لم يبحر من قبل إلى هناك ، ولم يبحر أحد من معاصريه ، ولكن الذين ذهبوا إلى بلاد الهند عن طريق البر يؤكدون وجود عجائب وبضائع رائجة في تلك البلاد ، وهو يفهم البحر ، ويستطيع أن يدرك الطريق الآمن للوصول إلى شاطئ الهند ، ولكن ما وقع ذلك على بحارة سفينته الحالية ؟ .. ذهب فحدثهم بما ينو ، عارضه قليلون ولكن وافقه معظم بحارته ، وهكذا بدأ فى بناء سفينة كبيرة ، كان الناس يمرون فيتعجبون من ضخامتها ، واكمل بناؤها .

تجمع أصحاب السفن الأخرى ، وحذروا أحمد بن ماجد من الإبحار إلى شواطئ الهند ، فقد سمعوا أن كثيراً من الرابنة حاولوا ذلك ، لكن سفنهم قد تحطمت في الطريق ، كان أحد الموجودين ملاحاً ممن نجوا من إحدى تلك السفن التي تحطمت ، سأله أحمد بن ماجد عن كيفية تحطمها وغرقها ، فأخبره أنها ارتطمت بالصخور المخفية تحت سطح الماء على عمق قليل ، سأله عن كيفية إبحارها ، فأجابه بأنهم كانوا يحرون كالعادة بمحاذاة الساحل ، حيث علم أحمد بن ماجد أنه يجب عليه التوغل في عرض البحر ، لكي يسلم في رحلته ويحافظ على سفينته ، حين أعلن أنه سيبحر بسفينته الجديدة إلى شواطئ الهند أعطاه قليل من التجار بضائعهم ، وأحجم الآخرون ، إذ كانوا يتوقعون عدم وصوله سالماً إلى هناك .

وبدأ رحلته الأولى إلى بلاد الهند ، فخرج من ساحل جلفار إلى بحر عُمان حيث خرج منه متوغلاً في المحيط الهندي ، ثم اتجه شرقاً وهو في عرض المحيط حتى صار في مواجهة الشواطئ الهندية ، فجنح إليها ووصل سالماً ، وعاد غانماً محملاً ببضائع الهند ، وكان أهمها الحرير الهندي والعود الهندي والتوابل .

تسابق التجار لإعطائه بضائعهم ، حين رأوا أنه عاد سالماً ، لكنه لم يأخذ البضائع من الجميع ، بل أخذ على قدر ما تسمح به حمولة السفينة .

وتوالى رحلات أحمد بن ماجد إلى شواطئ الهند ، يحمل البضائع من بلاد عمان ، فيبيعها في بلاد الهند ، ويشتري بتمنها بضائع من بلاد الهند يوصلها إلى التجار في بلاد عمان ، ويأخذ عمولته عليها ، ثم قرر أحمد بن ماجد أن يحمل لنفسه بعض البضائع ويبيعها لحسابه ، فانهالت عليه المكاسب ، وتجمعت لديه الأموال ، ولم تمر أربع سنوات إلا وصار واحداً من الأثرياء المعدودين ببلاد عمان .

وقرر ذات يوم أمراً ، هو لن يبيع البضائع التي يحملها من بلاد عمان في الهند ، بل سيبيعها في شواطئ إفريقيا ، ويشتري بضائع من إفريقيا لبيعها في الهند ، ثم يشتري بضائع من الهند يعود بها إلى عمان ، وهذا سيجعل المكسب أضعافاً مضاعفة .

وهكذا بدأ أحمد بن ماجد طريقاً جديداً في رحلاته التجارية ، فحمل البضائع من عمان ، وأبحر بها حتى وصل إلى ماليندى ، التي هي كينيا الحالية ، وهناك تعرّف إلى ملكها وصاراً صديقين ، حمل بضائع من إفريقيا فباعها في الهند ، وحمل بضائع من الهند ، ورجع بها إلى عمان ، وتعددت رحلاته ، وتعلّم كثيراً من اللغات ، منها الفارسية والسنسكريتية ولغة جاوة والزننج وغيرها ، وأقام علاقات طيبة مع أهل البلاد التي زارها ، وتوثقت علاقته بأمرائها وملوكها .

لكن أحمد بن ماجد لم يقض حياته كلها في إبحار متواصل ، فقد كانت هناك فترات قليلة من الراحة يقضيها في إفريقيا أو الهند ، وكانت

هناك فترات طويلة نوعًا ما تصل إلى عدة شهور يقضيها في بلدته
 جلفار على ساحل عمان مع زوجته وأولاده وبين أهله ، وفي تلك
 الفترات كان يؤلف الكتب في علوم البحار ، وما يرتبط بذلك من
 الملاحة الفلكية ووصف السواحل ، وطرق الإبحار والأحياء المائية
 والظواهر المناخية وغيرها .

الربان

مكائنه :

لم يصل أحمد بن ماجد إلى مكائنه فى ميدان الملاحة البحرية بصفته رباناً ماهراً فحسب ، ولكن اتخذ مكانة رفيعة بصفته أمهر الربانة فى عصره وعبر العصور السابقة عليه ، فلم تعرف البحار رجلاً مثله يقدر على مواجهة العواصف والأنواء ويشق صدر الأمواج ، ويقرأ خريطة النجوم فى السماء ، ويستخدم الآلات ، كى تصل السفينة إلى غايتها ، ويعود البحارة إلى أهليهم سالمين .

كان إذا عاد إلى بلده جلفنار على شاطئ عمان يهرع التجار إليه ، وإذا أقام التف الناس حواله يسمعون منه حكايات البلدان والبحار ، وحكايات القدماء والأشعار والأخبار ، فهو واحد من العالمين بالتاريخ ، يحدث أهل بلده عن مواقف خلق الله - عز وجل - عبر السنين الطويلة ، ويطلع ما يرويه بالآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة مركزاً دائماً على النواحي الدينية ، داعياً إلى الأخلاق الحسنة ، كما كان يطلع ما يرويه أيضاً بالآيات الشعرية التى تحوى الحكمة والمعانى الطيبة ، وكان إذا همَّ بالإبحار بسفينته خرج أهل جلفنار لوداعه ، داعين له بالعودة سالماً هو وأصحابه - أما إذا خرج إلى عرض البحر ، فهو أصد البحار وليث اللبث ، الذى يعرف أحوال الرياح والأمواج ويدرى خطوط السير ، يقود سفينته فى الليل كما يقودها فى النهار ، مهتدياً بالنجوم فى معرفة الاتجاهات ، وهو الرئيس المطاع ،

والقائد المهاب المحبوب ، حاسمٌ بغير قسوة ، مريحٌ بغير تراخٍ ، مبسمٌ يشيع حوله جوًّا من البهجة ولا يفارقه نشاطه وحيويته لحظة من اللحظات .

وعُرف أحمد بن ماجد عبر البلاد ، فقد تناقل الناس أخبار رحلاته الموفقة ، وبراعته التي ليس لها مثيل ، وتدبُّه العميق ، فهو يدعو دائماً إلى ذكر الله عز وجل ، ومن نصائحه للملاحين قوله : (ينبغي أنك إذا ركب البحر أن تلزم الطهارة ، فإنك في السفينة ضيف من أضياف الباري - عز وجل - فلا تغفل عن ذكره) .

ولم يكن العرب وحدهم المهتمين بالملاحة ، بل كانت هناك أمم أخرى تعافر لتجد لها مكاناً في هذا المجال .

محاولات البرتغال :

توجهت أنظار كثير من الدول إلى الهند ، بغية الإفادة تجارياً مما تنتجه ، وكانت المهمة سهلة بالنسبة للدول القريبة منها ، أما الدول البعيدة فكان من المستحيل أن تحقق هذه الفائدة ، لكن حكومة البرتغال أرادت ذلك ، كانت المشكلة أنها تقع في جنوب غرب أوروبا على المحيط الأطلسي ، وبينها وبين بلاد الهند أمم ودول وعوائق طبيعية كثيرة من بحار وجبال وصحارى ، لذلك فكروا فى الوصول إليها بالطريق البحرى ، وقد نجحت سفن البرتغال فى الوصول إلى غينيا فى غرب

إفريقيا سنة ١٤٥٥ م ، ثم نجح الريان البرتغالي برتليمو دياز فى الوصول إلى جنوب إفريقيا ، واجتياز رأس العواصف الذى سُمى رأس الرجاء الصالح فيما بعد ، وكانت رحلة دياز سنة ١٤٨٧ - وبعد عشر سنوات أى فى سنة ١٤٩٧ م قام فاسكودا جاما برحلته ، كان عمره آنذاك ٣٧ سنة ، فى حين كان أحمد بن ماجد فى السنين من عمرة تقريباً .

خرج فاسكودا جاما من البرتغال بثلاث سفن ومعه أخوه بولو و ١٥٠ بحاراً ، فاجتاز رأس الرجاء الصالح ، وفقد إحدى سفنه عند ناتال على الساحل الإفريقى ، فحمل بياراتها فى سفينته الأخرين ، واتجه شمالاً بمحاذاة الشاطئ الإفريقى حتى وصل إلى ماليندى فى مملكة كامبيا وهى كينيا .

كان عليه أن يحرم من كينيا فى الشاطئ الشرقى لإفريقيا إلى بحر العرب جنوب شبه الجزيرة العربية ، وينطلق من هناك إلى المحيط الهندى ، لكنّ بحارة ماليندى حذروه من المخاطرة بنفسه وسفينته وبيارتها ، وأخبروه أن كل السفن التى حاولت القيام بمثل هذه الرحلة قد تحطمت على الصخور ، وأبلغوه أن الوحيد الذى يمكنه الإبحار إلى الهند ملاح عربى مسلم وهو مُعلِّم أى ريان ، ويطلق عليه البحارة اسم المُعلِّم كَنَّا أو كَنَّاكَا ، ومعناها الحاسب أو الفلكى باللغة السنسكريتية ، وذلك لأنه كان خبيراً بالملاحة الفلكية ، أما اسمه العربى

فهو أحمد بن ماجد ، وهو صديق لملك ماليندى ، وقرر فاسكودا جاما أن يستعين بابن ماجد فى رحلته .

لقاؤه مع فاسكودا جاما :

ذهب فاسكودا جاما إلى ملك ماليندى ، فاحتفى به احتفاء زائداً وأكرمه إكراماً واسعاً وأعطى فاسكودا جاما للملك هدايا كثيرة قيمة وطلب منه أن يأمر الملاح العربى أحمد بن ماجد بالإبحار معه ليدلّه إلى طريق الهند ، لكن الملك اعتذر ، فإن أحمد بن ماجد فى إحدى رحلاته ، وربما لا يجرىء إلى ماليندى قبل شهر .

استشار فاسكودا جاما أصحابه ، وقرروا الانتظار حتى يجرىء الملاح العربى ، وشجعهم على اتخاذ هذا القرار أنهم فقدوا إحدى سفنهم قبل وصولهم إلى ماليندى ، وانتظروا حتى وصل أحمد بن ماجد بسفينته الضخمة فاستدعاه الملك ، وأخبره برغبة الأميرال البرتغالى فاسكودا جاما .

كان أحمد بن ماجد قد وصل توأ من بلاد الهند ، ولا حاجة به إلى العودة إليها قبل عام ، بل هو سيعمل البضائع من توابل وغيرها من ماليندى ، ويرجع بسفينته إلى جلفار بشاطئ عمان ، بالإضافة إلى هذا هو لن يترك سفينته ليعاون ملاحاً آخر فى قيادة سفينته .

أبلغ الملك الرد إلى فاسكودا جاما ، الذى طلب منه أن يحاول إقناع

أحمد بن ماجد ، فوعده بذلك ولم يفعل ، فلما رأى دا جاما أن الملك تباطأ في إرسال أحمد بن ماجد إليه ، انتظر حتى زار أحد أقرباء الملك سفينة فاحتجزه كرهينة ، حتى يفى الملك بوعده ، وقد أدى ذلك إلى أن سارع ملك ماليندى إلى ابن ماجد ، وضغط عليه بكل الوسائل ، كي يترك سفينة في ماليندى حتى يوصل فاسكودا جاما إلى سواحل الهند ، ثم يعود لأخذها ، ووافق أن يقوم بهذه الرحلة - ولكن بشروط ، طلب أن يقوّلها للأميرال دا جاما نفسه ، فالتقى الجميع على ظهر السفينة البرتغالية ، وفي قمرة الريان كان اللقاء التاريخي بين أشهر ربانة البحار في ذلك الزمان .

أحداث الرحلة :

تعارف الريانان الشهيران أحمد بن ماجد وفاسكودا جاما ، وعرض كل منهما ما لديه من آلات ملاحية وخرائط بحرية ، وقد أصيب دا جاما بالذهول مما رأى من آلات متطورة وخرائط دقيقة لدى ابن ماجد ، وتحذّنا .. كان البرتغاليون يعرفون خطوط العرض برصد الشمس ، بينما كان أحمد بن ماجد يعرف خطوط العرض برصد الشمس نهائياً ، وبرصد النجوم ليلاً ، وهو ما كان يفتنّه فاسكودا جاما ، وأحس ساعتها أنه عثر على الرجل الأوحّد في العالم ، الذى يستطيع توصيله سالماً إلى شواطئ الهند ، لكن أحمد بن ماجد أبلغه أن موافقته على توصيله مقرونة بشروط :

أولها : أن يخلي سبيل قريب الملك الذى يحتفظ به كرهينة على ظهر سفينته .

وثانيها : أن يرافقه عدد من بحارته - الذين يعرفون أسلوبه فى الملاحة - على ظهر سفينة فاسكودا جاما .

أما ثالث الشروط : فهو أهمها ، وسأله : فاسكودا جاما : وما هذا الشرط ؟

فأجاب أحمد بن ماجد : أن أكون أنا قائد السفينة وربانها ، فلا تتدخل فى شىء ، حتى تعود إلى ثغر ماليندى ، فأسلمك سفينتك . كان شرطاً يصعب قبوله بالنسبة للأميرال الذى قاد سفنه من سواحل البرتغال فى جنوب غرب أوربا ، حتى وصل بها إلى سواحل كينيا فى شرق إفريقيا ، ولكنه لم يجد بُدّاً من الموافقة على هذا الشرط أيضاً ، حدث ذلك يوم ٢٢ أبريل سنة ١٤٩٨ م ، وفى يوم ٢٤ أبريل بدأت الرحلة التاريخية فوصلوا سالمين إلى كلكتا على شواطئ الهند بعد ٢٢ يوماً دون عناءٍ ملاحىٍّ ودون مخاطر ، ولكن جرت أحداث كثيرة على ظهر السفينة منذ إبحارها من ماليندى حتى وصولها إلى كلكتا ، وكان يسميها البرتغاليون كواليكوت ، ودُكرت لدى بعض الجغرافيين العرب باسم قاليقوت .

كانت هناك عيون تراقب أحمد بن ماجد منذ اللحظة الأولى التى أبحرت فيها السفينتان من ماليندى ، كان يقود السفينة الأولى ، فى

حين كان يتبعه بولو - أخو فاسكودا جاما بالسفينة الثانية ، أما العيون التي كانت تراقب ابن ماجد فكانت عيون ثلاثة من البحارة ، يتبعون مدرسة « الجونتا » فى لشبونة ، وهى مدرسة للرياضيات والفلك ، أنشأها رجل اسمه مارتن بهاييم سنة ١٤٩٢ م حين طُرد مع ١٢٠ ألف شخص من قشتالة بأسبانيا ، فقد أخذ معه هو وأصحابه ما كانوا ترجموه من اللغة العربية إلى لغتهم من كتب ورسائل فى المُرشِدات الملاحية والخرائط التى تبين الطرق البحرية ، وكذلك الجداول الفلكية الخاصة بالملاحة ، وحين أزمع فاسكودا جاما القيام برحلته أمر منك البرتغال مانويل الثانى كل الجهات العلمية بمدّه بما لديها من كتب يمكن أن تفيده فى رحلته ، فمدته مدرسة الجونتا بما لديها ، وأمرت ثلاثة من البحارة الذين يدينون لها أن يكونوا على سفينة فاسكودا جاما ليعودوا بالأخبار الحقيقية للرحلة ، ولكى يحصلوا على كل ما يدركونه من كتب وخرائط ملاحية وجداول فلكية من العرب أو الهنود إذا أكملوا الرحلة ، لذلك كانت عيون هؤلاء البحارة ترقب أحمد بن ماجد ، ولم يكن هدفهم غير الحصول على ذلك الصندوق الصغير الذى يحتفظ به فى قمرة ، والذى يحتفظ فيه الخرائط الملاحية الخاصة به ، والتى لا توجد مع أحد سواه .

صحب أحمد بن ماجد عشرة ملاحين من بحارته ، ممن يثق فى براعتهم الملاحية وقدرتهم على التصرف فى المواقف الصعبة ، وكان

أحدهم اسمه بدر ، لم يشارك فى أعمال البحارة هذه المرة ، فقد كانت مهمته محددة فى البقاء فى قمرة أحمد بن ماجد حتى يحرس الصندوق الخطير الذى يضم الأوراق والخرائط والجداول الفلكية ، ولا يخرج من القمرة بأى حال من الأحوال .

لكن البحارة الثلاثة الذين أرسلتهم الجوتنا لم يأسوا ، فقد كان عليهم تنفيذ مهمتهم بسرقة أوراق أحمد بن ماجد ، وخططوا ونفذوا ، ففى اليوم الثالث من بدء الرحلة فوجئ بدر ببحار يطرق باب القمرة ويدعوه للخروج ، فالسفينة تشرق ، خرج بدر يعدو إلى آخر الرواق ومعه ذلك البحار ، فوجد قطعة من القماش مشتعلة فيها النار وسرعان ما أطفأها ذلك البحار وحده ، حينذاك علم بدر أنه قد خُدع ، فعاد مسرعاً إلى القمرة التى ترك بابها مفتوحاً ، لكن الصندوق كان قد اختفى .

كان بدر رجلاً رزينا ، وبالرغم من فداحة الأمر إلا أنه انتظر حتى جاء أحمد بن ماجد إلى القمرة فأخبره بالأمر ، فقال له : قد أحسنت بالصمت حتى أجيء ، وأمره ألا يبدى شيئاً مما حدث ، وأمره أن يبدله على ذلك البحار الذى أخرجه من القمرة فدلّه عليه ، تحدث ابن ماجد مع أصحابه واحداً واحداً كلاً على حدة ، وأخبرهم بالأمر ودأبهم على البحار ، وأمرهم أن يراقبوه بكل دقة دون أن يشعر ، فهذا البحار له زميل آخر دخل إلى القمرة وسرق الصندوق ، وجميع البحارة

يتحدثون ويثرثرون ويمزحون ، لكن هذا البحار سيتحاشى التحدث إلى زميله إلى نهاية الرحلة حتى لا يلفت إليه الأنظار ، لذلك أمر أحمد بن ماجد بحارته العشرة أن يراقبوا هذا البحار حتى يعرفوا البحار الآخر الذى لا يتحدث إليه ، ففى قمرة ذلك البحار الآخر سوف يجدون الصندوق .

نَفَذَ البحارة العرب أوامر قائدهم ، وبعد أسبوع جاءوه بالنتيجة ، هناك بحاران لا يتحدث هذا البحار إليهما ، فأمر أحمد بن ماجد أصحابه أن يهجم كل خمسة منهم على قمرة كل بحار من هذين البحارين فى نفس الوقت ويفتشوا القمرتين ، فسوف يجدون الصندوق فى إحداهما ، وكان ما توقعه الريان الحكيم ، فقد وجدوا الصندوق فى قمرة أحد البحارين ، حينذاك اطمأن أحمد بن ماجد واستدعى فاسكودا جاما ، وويّحه على فعلته ، فأقسم أنه لا علم له بهذا الأمر ، وأصدر فاسكودا جاما أوامره بعزل البحارين المذنبين - الذى أخرج بدرًا من القمرة ، والذى وُجد الصندوق لديه - وتقييدهما فى صارى السفينة واقتين حتى يعترفوا باسم من كُتِبَ عليهما بهذا العمل المشين ، ووضع حراساً عندهما ، ولكن حين دخل الليل فوجئ الحراس بسهمين متالين يستقران فى صدرى البحارين المقتَدين ، ولم يعرف أحد من أطلق هذين السهمين .

منذ ذلك اليوم جعل أحمد بن محمد ثلاثة من رجاله يحرسون صندوق

الأوراق حتى وصلوا إلى كلكتا بشواطئ الهند ، فمكثوا هناك ثلاثة أسابيع ثم حملوا بضائع كثيرة وعادوا إلى ثغر ماليندى ، حيث أخذ أحمد بن ماجد سفينته وعاد إلى عُمان ، فى حين واصل فاسكودا جاما رحلته إلى البرتغال ، وهو يحمل معه معلومات قيمة جمعها عن بلاد الهند وتجاراتها ، فأوصل تلك المعلومات إلى حكومة بلاده .

نتائج الرحلة :

كانت السفن تتحطم على الصخور وهى فى طريقها إلى الهند ، إذ كان الربانة يحرون بسفنهم بمحاذاة الساحل ، فقد كان التوغل فى المحيط الهندى غير مأمون العواقب ، وحين كان يغامر أحدهم فيحاول التوغل فيه كانت الأمواج تبتلع سفينته بمن عليها ، ثم اقتحم أحمد بن ماجد أعالي البحار ، فعرف كيف يتوغل فى عرض المحيط ، فيتحاشى بذلك الارتطام بالصخور القريبة من الشواطئ ، ثم يتجه إلى سواحل الهند بعد ذلك ، ونفس الأمر خلال عودته ، فهو كان يعرف الخط الذى يسير فيه حين يتوغل فى المحيط الهندى ، فلا يتوغل أكثر من اللازم حتى لا تتوه سفينته بين الأمواج ، ولا يقترب أكثر من اللازم ، وقد عرف فاسكودا جاما هذه النظرية فى الإبحار إلى الهند من أحمد بن ماجد أسد البحار خلال رحلته ، وعن طريق هذه الرحلة عرف البرتغاليون الطريق إلى الهند وتجارة التوابل والثراء ، فبدأت حملاتهم البحرية بعد عودة « فاسكودا جاما » بسنة واحدة أى

سنة ١٥٠٠ م ، فقامت حملة بقيادة ديوجو دياز الذى اكشف جزيرة مدغشقر .

ثم توالى حملات استولوا خلالها على موزمبيق وساحل الزنج وسُغَالَة ، وذلك لتوفر المدافع والبنادق معهم ، وأقاموا التحصينات على الشواطىء الإفريقية الشرقية ، لتكون قواعد لهم ، وامتد سلطانهم حتى وصلوا إلى الهند فاحتلوها ، واستولى الأميرال البرتغالى « الفونسو دى البكويرك » على جنوب شبه جزيرة العرب والبحر الأحمر وعلى عدن وعُمان وهرمز ، وأرسل السلطان الفورى حملة لمحاربة جنود البرتغال على ساحل الهند بقيادة الأمير حسين الكردى ، لكن القائد البرتغالى « داليميدا » انتصر عليه ، وانتزع البرتغاليون مراكز التجارة من أيدي العرب وأحرقوا مراكبهم واستولوا على خرائطهم الملاحية ، واحتلوا المراكز التجارية ٣٠٠ سنة ، بل واحتلوا كل البلاد المطلة على البحار المؤدية إلى الهند ، حدث كل ذلك نتيجة لرحلة فاسكودا جاما إلى بلاد الهند ، ولولا قيادة أحمد بن ماجد لسفنه لما حدث كل هذا ، فبطل أخطأ حين قاد سفن البرتغال وعرفهم طريق الهند ؟؟ .

لا ، لم يخطئ أحمد بن ماجد ، فأولاً: هو قام بهذه الرحلة بتكليف من ملك ماليندى ، ثانياً: هو كان يتقدم علماً لربان مغامر ، وه يقدمه

بصفة فاسكودا جاما عدواً يبغي الاحتلال والتخريب ، فهو كان يرى أن العلم حق للجميع ، بدليل أنه وضع كل خبراته الملاحية فى أكثر من ثلاثين كتاباً للأجيال التالية ، وقد أعلن رأيه صريحاً فى مطلع قصيدة له فى علم البحر حيث قال :

خليلٌ هيا واسمعا دُرَّ منطقى

فلا عاش مَنْ يخفى العلوم ولا بقى

وليس الذنب ذنب أحمد بن ماجد الذى قدّم علمه لإسعاد البشر والتيسير لهم ، فاستخدمه الآخرون فى أطماعهم ، وتسببوا فى شقاء الناس ، لقد قاد السفن كملاح شريف ، دون التفكير فى الاستغلال السيئ فيما بعد لهذا الأمر من جانب البرتغاليين ، فهو مثل أى عالم يقدم علمه للإفادة به ، مثله مثل « ألفريد نوبل » الذى أجهد نفسه فى التوصل إلى اختراع الديناميت لمساعدة الناس فاستخدمه بعضهم فى الشر ، فالعيب ليس فى نشر العلم ، وإنما العيب فى النفوس المريضة التى تستغل ذلك العلم لتحقيق الأطماع الشخصية .

العالم

مكانته العلمية :

أدرك أحمد بن ماجد أن العالم يجب أن يسجل ما توصل إليه في كتب ، تكون سفراءه إلى الناس في عصره ، وشهوده أمام الأجيال التالية على ما حققه من إنجاز ، وتكون منطلقاً لمن يجيء من بعده فينمو العطاء عبر العصور وتتواصل حلقاته ، لذلك ألف أكثر من ثلاثين كتاباً ، وتذكر بهذه المناسبة بعض عباقرة العرب مثل أبي حامد الغرناطي ، ذلك الرحالة الذي ألف كتابه الأول وعمره ٧٤ سنة تحت إلهام أحد أصدقائه ، وألف كتابه الثاني وعمره ٨٤ سنة تحت إلهام صديق آخر ، ولولا إلهام هذين الصديقين لما سجل له تاريخ العلم ريادته لعلم الكوزموغرافيا ، وهو علم الكون مركزاً على الناحية المعجائية في الأرض ، وتذكر غيره ممن لم يؤلفوا كتباً مثل زرياب الذي أنشأ أول أكاديمية للموسيقا والغناء في العالم ، والذي أضاف الوتر الخامس للعود ، والذي أدخل إلى أوروبا أكثر من أربعين آلة موسيقية ، وطور الموسيقى في العالم ، بل وأثر في أذواق الناس - مأكليهم وملبسهم وعطورهم وغيرها ، ولاشك أنه كانت لديه رؤية جمالية ، وكان ذا فكر متطور ، ولكن لم يتبق من كل ذلك غير حكايات تتناقلها الكتب ، ولو كان ألف كتاباً لنقل لنا فكره ورؤيته .

وهناك غيره ممن طوابعوا النسيان ، فلم يتبق مما أنجزوه حتى الحكايات ، لأنهم لم يخضعوا لمن جاء من بعدهم أثراً مكتوباً ، كل

ذلك أدركه أحمد بن ماجد ، فألف كتبه التى ابتدع فيها علوم البحار فأفاد البشرية جمعاء ، وأرسى قواعد علم جديد لم يكن معروفاً قبلاً ، فهو رائد هذا الفرع من العلوم ، لأنه أول من ألف فيه كتباً ذات منهج وقيمة علمية محترمة ، وكل ما ألفه من سبقوه فى هذا المجال لم يتعدَّ وسائل الإرشاد الملاحى .

ولم يكن أحمد بن ماجد عالماً مؤلفاً فحسب ، بل كان أيضاً عالماً مخترعاً ، تمكن من اختراع عدد من الآلات الخاصة بالملاحة الفلكية ، وأهم مخترعاته البوصلة المقسّمة إلى ٣٢ درجة ، والتى لم تزال مستخدمة إلى يومنا هذا .

وقد اعترفت الدوائر العلمية فى العالم أجمع بفضل أحمد بن ماجد ، بل لقد أقامت حكومة البرتغال نصيباً تذكاريّاً فى مدينة ماليندى تخليداً لذكراه ، وأعتزافاً بفضله ، وتقديراً لدوره فى الملاحة العالمية وفى علوم البحار .

مخترعاته :

عرف العرب آلات ملاحة فلكية يستطيعون باستخدامها تحديد خطوط العرض ، وذلك بتحديد مواقع النجوم ، وهى آلات خشبية إحداها تُعرف باسم الكمال ، وأخرى اسمها البليستى ، والثالثة اسمها اللوح ، وهذه الآلة هى التى أذهلت فاسكودا جاما حين رآها مع

أحمد بن ماجد ، وهى تحتوى على ثلاث قطع خشبية واحدة مربعة وواحدة ضيقة والثالثة أصغر ، وتترلق جميعها على محور من خشب الأبنوس المدرّج ، ويُظن أنها من اختراع أحمد بن ماجد ، ولكن الاختراع الثابت له هو البوصلة البحرية المقسمة إلى اثنين وثلاثين درجة ، ومازال البحارة يستخدمونها إلى يومنا هذا ، خاصة أصحاب المراكب الشراعية .

وقد ظهرت البوصلة - أول ما ظهرت - بصورة بدائية عند أهل الصين وعند العرب فى صورة إبرة مغناطيسية ، فكانت على شكل إبرة معلقة فى حلقة من خشب السنط تطفو فوق الماء فتشير إلى الشمال ، أو على شكل قطعة رقيقة من المعدن مطروقة على هيئة سمكة تطفو على الماء ، فيشير فمها إلى الجنوب ، أما « ورده الرياح » فهى عبارة عن ورقة أو لوح من الخشب تقسم عليه دائرة الأفق إلى الجهات الأربع الأصلية ، ويقسم ما بين كل جهتين إلى أقسام صغيرة ، ويمكن بواسطتها معرفة اتجاه الرياح ومن أين تهب ، إذا علمنا جهة واحدة من الجهات الأصلية ليلاً أو نهاراً ، وورده الرياح العرية مبنية على التقسيم اللبلى لدائرة الأفق ، فهى قائمة على الاستدلال على جهة الشمال بالنجم القطبى - أو الجاد كما أسماه العرب قديماً - وهى مقسمة إلى أقسام فلكية ، ويستدل بها الريان ليلاً على الاتجاهات فيبحر بسفينة فى الاتجاه الصحيح مسارها .

حين جاء أحمد بن ماجد اخترع آلة ربط فيها بين الإبرة المغناطيسية ووردة الرياح ، فقسمها إلى ٣٢ قسمًا سماها الأختان ، تمثل دائرة الأفق تبعًا للجهات الأصلية حسب مطالع ومغارب نجوم معينة ، فالشمال يشير إليه الجاه « النجم القطبي » ، والجنوب يشير إليه نجم السهيل ، والشرق يشير إليه مطلع الطائر ، والغرب يشير إليه مغرب الطائر ، وبين كل جهة والتي تليها وضع أقسامًا هي أختان تمثل منازل النجوم ، وكل خن من أختان البوصلة عند ابن ماجد يمثل ٧ أصابع . وعلى ذلك تكون دائرة الأفق عنده مقسمة إلى ٢٢٤ أصبعًا (٣٢ خنًا × ٧ أصابع) ، حيث الأصبع هو وحدة قياس ارتفاع النجم التقصى أو النجوم القريبة منه ، ويقابل الدرجة فى التقسيم المعاصر ، وبالقياص والحساب عُرف أن الأصبع يساوى ٩٧ ميلًا بحريًا ، والاعتبار الملاحي عند ابن ماجد يتلخص فى أمرين :

١ - قياس المسافة التى تقطعها السفينة بين نقطتين .

٢ - قياس زاوية السير وخط العرض .

يبقى أن نعرف أن الإبرة المغناطيسية كانت على شكل سمكة توضع فى الماء - كما أسلفنا - أو إبرة معلقة فى حلقة ، ويعود الفضل إلى أحمد بن ماجد فى تثبيت الإبرة الممغنطة فوق سن من الوسط ، لتحرك حركة حرة فوق قرص وردة الرياح ، وهى الطريقة المثلى لتثبيتها ، ومازالت تثبت بهذه الطريقة فى أية بوصلة فى العالم حتى يومنا هذا .

. ونخلص من كل ذلك إلى أن ابن ماجد قدم عدة آلات من اختراعه ، كما طور آلات أخرى ، مما يضيف الكثير إلى ذلك الملاح العربي الذى كان أسد البحار بحق .

مؤلفاته :

قيل إن أحمد بن ماجد كتب ٤٠ مؤلفاً ، وقيل ٣٢ مؤلفاً ، وعلى أى حال هو ألف أكثر من ثلاثين مؤلفاً فى الملاحة البحرية ، وبعضها قد فُقد أو ضاع ، كما ضاعت الخرائط التى وضعها لطرق الملاحة البحرية فى المحيط الهندى ، ولا ندري إن كانت فقدت للأبد أم أنها ستظهر يوماً ما ، ويقع بعض هذه المؤلفات التى وضعها أحمد بن ماجد فيما يقرب من مائتى صفحة ، وبعضها صغير عبارة عن فصل فى موضوع يقع فى صفحة ، وسوف نعرض باختصار شديد ما عُرف من مؤلفاته :

١ - كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد :

وهو أهم ما ألفه أحمد بن ماجد ، إذ أوجد ما يسمى بعلم البحر ، فحول الملاحة من تجربة مكتسبة إلى علم يمكن دراسته وتعليمه ، وهو يعتبر رائد علوم البحار بهذا الكتاب الذى يقع فى ١٧٦ صفحة ، ويحتوى على مقدمة واثنى عشر فصلاً أطلق على كل فصل عنوان فائدة ، فهى ١٢ فائدة ، وقد فرغ من تأليفه سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠ م

ويقول إنه ألفه لركاب البحر ورؤسائه ، والفوائد التى ضمها الكتاب كالتالى :

الفائدة الأولى : فى تطور علوم البحر على أيدى سلسلة من الربابة ، وفى شرح اصطلاحاته الملاحية .

الفائدة الثانية : ملخص للمعلومات والإرشادات التى يجب على الریان معرفتها .

الفائدة الثالثة : فى ذكر المنازل الفلكية والنجوم الملاحية ، التى يهتدى بها الریان فى عرض البحر .

الفائدة الرابعة : فى ذكر الأخنان وتقسيم النجوم والكواكب حسب درجة لَمَعَانِهَا .

الفائدة الخامسة : فى ذكر الكتب التى يجدر برؤساء البحر استيعابها ، وأغلبها فى الجغرافيا الفلكية والرياضية والوصفية .

الفائدة السادسة : فى ذكر البوصلة وعلل البحر وأخطاره .

الفائدة السابعة : فى سبل قياس ارتفاعات الأنجم .

الفائدة الثامنة : فى تجهيز السفينة بأدواتها الفنية وصيانتها وتركيب العسكر المسئولين عن حمايتها ، والرياح وأوقاتها ومواقع حدوثها ، والعلامات الطبيعية ، والعلامات البيولوجية (كالطيور

والأسماء (الخاصة بكل منطقة من مناطق البحر ودلالاتها على اقتراب السفينة من البر .

الفائدة التاسعة : فى دوران البحر على كل اليابس فى الأرض ، مع وصف جغرافى للسواحل والمرافىء والبحار المختلفة كالبحر الأحمر والبحر المتوسط .

الفائدة العاشرة : فى وصف الجزر الكبيرة المشهورة ، ويذكر ١٠ جزر : الأولى - جزيرة العرب فيصفها ويعرض تاريخها ، ويذكر أنها كانت جزيرة ، والتحت بالأرض بعد طوفان نوح عليه السلام والجزيرة الثانية - جزيرة القمر (مدغشقر) ويقول إنها كانت ملتحة قديماً بالأرض ثم انفصلت ، والجزيرة الثالثة - جزيرة سومطرة والرابعة - جزيرة جاوة ، والخامسة - جزيرة الفور ، والسادسة - جزيرة سيلان ، والسابعة - زنجبار والثامنة - البحرين وتسمى أول ، والجزيرة التاسعة - جزيرة ابن جاون ، أما الجزيرة العاشرة - فهي سقطرة .

الفائدة الحادية عشرة : فى مواسم السفر من السواحل المختلفة ، وهى تتفق مع مواسم الرياح ومدى ملاءمتها للإبحار .

الفائدة الثانية عشرة : فى وصف البحر الأحمر وجزره وشعبه المرجانية .

٢ - حاوية الاختصار في أصول علم البحار :

ويقع في ٦٠ صفحة ، وهو عبارة عن مقدمة نظرية وأحد عشر فصلاً كتبها شعراً في ١٠٨٣ بيتاً ، وقد ألف هذا الكتاب سنة ٨٦٦ هـ وفصوله كالتالي :

الفصل الأول : في إشارات يحتاج إليها الريان كالطين والحشائش والطيور والأسماك والحيات (٥٥ بيتاً) يقول :

والطين والحيات والأطيّار
والحوت والحشيش ، خذ أخباري
تغيّر الأمواه في الحالات
يحصل من طلّ ومن حيات

الفصل الثاني : في المنازل والأخنان (٦٠ بيتاً) يقول :

فأول معرفة المنازل
وهاكها شاميّة يا سائل
الشرطين والبطين والثريا
والدبران بعلمهم تهياً

الفصل الثالث : في قواعد للباشيات (٤٠ بيتاً) ، والباشي يقصد به ارتفاع النجم فوق الأفق في حالات معينة ، يقول :

وإن تُرِدْ معرفةَ الباشى
فاسمَعْ حديثَ ثِقَةٍ ماشى
فى الغَلَقِ أوفى موسمِ الأسفارِ
أوكلُ فصيلٍ فيه لا تمارى

وعلى هذا المنوال تسير بقية فصول الكتاب بأشعار عقلانية علمية
بحثة ، حيث الفصل الرابع فى مواسم الباشيات وشهورها (١٦٧
بيتاً) ، والخامس فى معرفة شطوط العرب والسيام والسودان (١٣٢
بيتاً) ، والسادس فى شطوط الهند والعجم (١٠٦ أبيات) ، والسابع
فى شطوط الجزر (١٨٣ بيتاً) ، والثامن فى معرفة الحسابات من
بر العرب إلى بر الهند (٦٨ بيتاً) ، والتاسع فى قياس النجوم (٦٧
بيتاً) ، والعاشر فى معارف ملاحية فى البحر من إفريقيا إلى الصين
(٧٠ بيتاً) ، أما الفصل الحادى عشر فهو تقويم لمعرفة الأوقات
(١١٤ بيتاً) .

٣ - الأرجوزة السُقَالِيَّة :

نسبة إلى سُقَالَة ، وهى آخر مدينة تُعرف بأرض الزنج كما قال ياقوت
الحموى فى معجم البلدان (ج ٣ ص ٢٥٣) ، وهذه الأرجوزة
تمثل الكتاب الثالث الكبير من مؤلفات أحمد بن ماجد إذ تقع فى
أكثر من ٧٠٠ بيت ، بدأها قائلاً :

الحمد لله الذى أنشأ المَلَأَ

من عَدَمٍ - جَلَّ تَعَالَى وَعَلَا

ويقول عن هذه الأرحوزة إنها خير معوان على السفر فى البحار الجنوبية ، وهى فى معرفة المجارى والقياسات من مليار وكنكن وجوزرات والسند والأطواح إلى السيف الطويل ، ومنه إلى نواحي السواحل والزنج ، وأرض السُّفَال والقمر وجُزُرِهِ ، ونوادير علوم جميع ما فى تلك النواحي إلى آخر الأرض من الجنوب ، وذكر القياسات التى يعرف بها الریان الملاحة الفلكية ، ووصف نوادر تلك الطرق الملاحية ، وسكان الأرض وملوكها ومواسمها ، وهى أرحوزة جامعة ، تطرَّق فيها لوصف الكون والسواحل والبلدان وثرواتها وعادات أهلها ، وفيها ذكر للإفرنج ، مما يدل على أنه كتبها فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وهذه الأرحوزة تضاف إلى مؤلفات العرب فى الكوزموغرافيا وهو علم الكون .

هذه هى الكتب الثلاثة الكبيرة والهامة - حسب ترتيبها - التى ألفها أحمد بن ماجد ، أما بقية مؤلفاته فلا تخرج - فى معظمها - عن نطاق المرشديات الملاحية ، التى يستعان بها لمعرفة طرق الملاحة بين سواحل معينة وموانئ مختلفة ، ومعظمها عبارة عن أراجيز بعضها يطول فيزيد على ٣٠٠ بيت ، وبعضها يقصر فلا يتعدى ١٣ بيتاً ، وبينها كالتالى :

- ١ - الأرجوزة المَعْرَبَةُ أَى التى عرَبَت الخَليجَ البريرى وصممت قياساته - ١٧٨ بيتاً .
- ٢ - أرجوزة قِبلة الإسلام فى جميع الدنيا - ١٣٦ بيتاً .
- ٣ - أرجوزة بر العرب فى خليج فارس - ١٦٠ بيتاً .
- ٤ - أرجوزة فى قسمة الجمعة على أنجم بنات نعل بالتمام والكمال - ٦٨ بيتاً .
- ٥ - أرجوزة كثر المَطْلَمَة (الربانة) وذخيرتهم فى علم المجهولات فى البحر والتجوم والبروج وأسمائها وأنظابها - ٧١ بيتاً .
- ٦ - أرجوزة فى التَّخَاتِ (الإبحار) لبر الهند وبر العرب - ٢٥٥ بيتاً .
- ٧ - أرجوزة الأبدال تقاس على ستة أوجه - ٦٤ بيتاً .
- ٨ - أرجوزة مخمَّسة فيها نصائح للريان - تقع فى صفحتين ونصف ، وهى آخر ما كتب إذ ألَّفها سنة ٩٠٦ هـ .
- ٩ - أرجوزة فى عدد أشهر الروم وأيام كل شهر - ١٣ بيتاً .
- ١٠ - أرجوزة ضريبة الضرائب - ١٩٢ بيتاً .
- ١١ - أرجوزة فى معرفة المنازل وحقيقتها فى السماء وأشكالها وعددها على التمام والكمال ، وهذه الأرجوزة تُنسب إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وتقع فى ٤٧ بيتاً وأولها :

الشُّرْطَيْنِ فَهَوَ رَأْسُ الْحَمَلِ
 إِذَا بَدَأَ فِي وَقْتِهِ الْمُغْتَدِلِ
 ثَلَاثُ نَجْمَاتٍ كَمَا خَطُّ الْأَيْفِ
 لَكِنَّهُ عَنِ الْقَسَوَامِ مُنْخَرِفٌ

١٢ - القصيدة الملكية ، وهى من مكية لجمدة لفرتك لكاليكوت ودابول
 وكتكن وجوزرات والأطواح وهزاميز - ١٧٢ بيتاً .

١٣ - أرجوزة نادرة الأبدال فى الواقع وذبان العيوق - ٦٨ بيتاً .

١٤ - القصيدة البائية المسماة الذهبية - فى بعض فنون البحر ، وكتبها
 فى حكم سلطان الماليك البرجية الأشرف قايتباى - ١٩٣
 بيتاً .

١٥ - الأرجوزة الفائقة فى قياس النجم سهيل - ٥٧ بيتاً .

١٦ - الأرجوزة البليغة وهى فى قياس السهيل والرايح - ٦٣ بيتاً .

١٧ - الأرجوزة المعلقة وهى فى الإبحار من بر الهند إلى أقصى الشرق
 عند حدود الحرات وغيرها ، الشارقة على البحر المحيط ، الذى
 لا خلفه سوى جبل قاف ، حسب قول ابن ماجد .

١٨ - الأرجوزة الثائية ، وهى فى الإبحار من جدة إلى عدن ، مع
 وصف طرق الملاحة والقياس .

١٩ - الأرجوزة الحادية ، وهى فى علم البحر - ١٥٥ بيتاً .

٢٠ - قصيدة فى علم البحر - ٣٣ بيتاً .

٢١ - الأرجوزة السَّيِّئةُ ، وهى فى ذكر سبعة علوم من علوم البحار ٣٠٥ أبيات .

وقد ألف أحمد بن ماجد قصائد وأراجيز أخرى لم تصل إلينا ، لكنه ذكرها ، واستشهد بأبيات منها فى كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد ، كما ألف فصولاً فى موضوعات مختلفة كل فصل عبارة عن مؤلف قائم بذاته ، وإن كان لا يتعدى الصفحة الواحدة فى أغلب الأحيان وهى مليئة بالاصطلاحات الملاحية ، وبينها كالتالى :

- ١ - فصل فى معرفة قياس المارزة .
 - ٢ - فصل فى معرفة النتحة فى أرض جوزرات .
 - ٣ - فصل فى معرفة البلدة فى أرض جوزرات .
 - ٤ - فصل فى معرفة البلدة على جاه عشرة .
 - ٥ - فصل فى معرفة المنتخ .
 - ٦ - فصل فى معرفة البلدة إذا كان من داخل الباب (باب المنذب) .
 - ٧ - فصل فى معرفة جوزرات على جاه عشرة وربيع من المارزة .
 - ٨ - فصل فى معرفة دائرة القطب من روس بر العرب .
- ويحتمل أن أحمد بن ماجد قد ألف هذه الفصول خلال إقامته

القصيرة في إحدى الموائئ هنا أو هناك ، كما يحتمل أنه ألف أراجيزه - التي تمثل معظم مؤلفاته - خلال رحلاته الطويلة في البحار المختلفة ، فالأشعار كانت تعلق بالذهن ، وكانت ملكة حفظها متوفرة لدى العرب ، أما استخدام الدواة والأقلام والأوراق فهو أمر يستلزم الإقامة في البر فترة طويلة ، لذلك نرى أن أحمد بن ماجد قد ألف كتابه النثرى الذي يعتبر أكبر مؤلف علمي له (كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) في فترة امتدت إلى عدة شهور أثناء إقامته في عُمان سنة ١٤٧٥ م ، وقد عاد إليه مرتين بعد ذلك في سنتي ١٤٧٨ م ، ١٤٩٠ م / ٨٩٥ هـ .

ويعلن أحمد بن ماجد أن حبه كان للأفلاك والنجوم ، وأنه وجد العلم الحق فيما تحويه الكتب فيقول :

تركتُ اشتغالي بالمُهَـا والجَادِرِ
وَصَيَّرْتُ مُغْرَى بالنجوم الزواهرِ
قليلٌ من الناس الذين أراهمُ
عفاً يرون الحقَّ خيرَ المآثرِ
يقولون لي : (كان الفلاني ..) ولم أرَ
مُخَلَّفَ عِلْمٍ مثلاً ما في دفتاري

وهو يعتز بنفسه ويدرك قيمة علمه فيقول :

حَصَرْتُ نَجُومَ الْأَفْقِ فِي الْبَحْرِ هَادِيًا
 بِهَا سَالِكَ الْبَحْرِ الْخَاطِرِ الْأَعْظَمِ
 وَالْقَوَا سِلَاحَ الْجَهْلِ لِمَا تَحَقَّقُوا
 مَقَالِي فِي غُرُبِ وَعُجْمٍ وَذَيْلِ
 بَوَادِرِ عِلْمِ الْبَحْرِ عَنِ تَفَرُّعَاتِ
 وَخَيْرِ صِفَاتِ الْبَحْرِ تَصَدَّرُ مِنْ فَمِي

وهو يقول لمن يجهلون قَدْرَهُ ، إنه سوف يأتي في مستقبل الزمن
 من يعرف قدره تمام المعرفة فيقول :

فإن تجهلوا قدرى - حَيَاتِي - فإنما
 سيأتي رجالٌ بعدكم يعرفوا قدرى

وجاء رجال أدركوا بالفعل قيمة عطلة أحمد بن ماجد وعرفوا قدره ،
 فبحثوا عن تراثه العلمى الفريد الذى قدمه للبشرية ، كرائد لمعلوم
 البحار ، وحققوا ما خلفه من مؤلفات قيمة ، وقد بدأت عملية البحث
 عن تراثه العلمى على يد المستشرق الفرنسى جبريل فران Gabriel
 Ferrand الذى نشر كتاب الفرائد فى أصول علم البحر والقواعد سنة
 ١٩٢١ مع ١٨ مؤلفاً آخر فى الملاحة الفلكية لشهاب الدين أحمد بن
 ماجد السعدى النجدى ، ذاكراً أن مخطوطات أحمد بن ماجد هى
 أهم وثيقة فى الجغرافيا الملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على

الإطلاق ، وتوالت مظاهر الاهتمام بالملاح العربى العبقرى من جانب المستشرقين ، تحقيقاً لمخطوطاته وبحثاً فى إنجازاته ، وشهادة بدوره الرائد فى علوم البحار ، وإظهاراً لتاريخه المجيد فى الملاحة البحرية ، من هؤلاء :

أغناطيوس كراتشكوفسكى ، وتيودور شوموفسكى الروسىان ، وليوبولد دى سوسير السويسرى ، وكارل بروكلمان الألمانى وجورج سارتون الأمريكى وغيرهم .

وفى الوقت الذى حصل فيه أحمد بن ماجد على شهرة عالمية ، لم يكن فى الدوريات العربية عنه غير مقالين :

أحدهما : نشر فى دمشق سنة ١٩٤٧ بقلم محمد ياسين الحموى .

والثانى : فى القاهرة سنة ١٩٥٧ بقلم حسن كامل الصيرفى .

ثم تركزت عليه الأضواء حين نشر الدكتور أنور عبد العليم كتابه (ابن ماجد الملاح) سنة ١٩٦٧ م ، ويرجع الفضل إليه فى تعريف القارئ العربى به ، ثم نشر كتاب (ابن ماجد أسد البحار) من تأليف رشدى صالح سنة ١٩٨١ فى طبعة شعبية حققت الانتشار لاسم أحمد بن ماجد ، وتوالت الإشارات إلى دوره الهام فى الحضارة الإنسانية وذلك من خلال بعض المقالات فى الدوريات ، وعدد من الفصول فى بعض الكتب ، أشادت بهذا الرائد العربى الذى غاب عن الدنيا

منذ أكثر من خمسة قرون ، إلا أن ثمار فكره وآثار عطائه مازالت ممتدة إلى اليوم ، تشهد بذلك ريادته لعلوم البحار فى العالم ، وتشهد بذلك البوصلة التى اخترعها ولم تزل مستخدمة إلى يومنا هذا ، فشهاب الدين أحمد بن ماجد ليس شخصاً مغموراً ، لكنه واحد من مشاهير العرب .

* * *

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	إشارة
٧	طفولته
٩	الإبحار
١٢	سواحل الهند
١٦	الريان
١٧	مكاته
١٨	محاولات البرتغال
٢٠	لقاؤه مع فاسكودا جاما
٢١	أحداث الرحلة
٢٦	نتائج الرحلة
٢٩	العالم
٣٠	مكاته العلمية
٣١	مخترعاته
٣٤	مؤلفاته

١٩٩٥ / ٢٣٩٩	رقم الإيداع
ISBN 977-02-4899-1	الترقيم الدولي

٧ / ٩٤ / ٢٣٥

طبع بمطابع دار المعارف ا.ج.م.ع.